الغرب، خصوصا ان رد فعل الشعب المصري بدا عاديا. فقد تصرف المصريون بهدوء طبيعي.

يومها تدفق على القاهرة حشد من مراسلي التلفزيون والصحافة والمصورين، قدموا اليها ليسجلوا آخر مشهد كبير في حياة السادات، كما توقع رؤساؤهم ان يكون، اي تلك التظاهرة الحاشدة من الحماس الشعبي الذي يعرف المصريون وحدهم كيف يجب ان يكون. لكن، ما حدث يوم ذاك انهم جميعهم تذكروا كم كان مذهلا تشييع جمال عبد الناصر قبل إحدى عشرة سنة. ولقد أدهش هؤلاء ان كل ما ابداه شعب مصر من عاطفة، بين اليوم الذي اغتيل فيه السادات واليوم الذي شيع فيه، انه احتفل بعيد الأضحى وكأن شيئا لم يحدث. وانه لفارق كبير، بما لا يقاس، ان يشيع جثمان عبد الناصر في قلب القاهرة وسط ذلك الموج البشري الصاخب، بكاء وندبا، وهو مشهد لا ينسى، وبين ان يشيع جثمان السادات في ضاحية يكثر فيها الغبار وقد خلت من الناس عدا قلة مضغوطة من الرؤساء الغربيين والأمراء ورؤساء الحكومات الذين احاطت بهم حراسة المئات من رجال الشرطة متحسبين لشغب لم يكن له وجود. وكما قال المراسلون، الأجانب يومها: إن شعب مصر العاطفي والطيب بطبيعته لم يفتقد بموت السادات «بطل الحرب والسلام». فقد دفن السادات، كما قال وزير الخارجية الفرنسي كلود شيسون، بغياب الشعب والجيش.

ومما لا ريب فيه ان ثمة شيئا غير صحيح كان يحكم مسلك ذلك القائد الذي اثبت موته، على رغم شعبيته في الخارج، كم كان غير محبوب كثيرا في بلاده. لقد كان مخطئا في سياساته بشكل ما. ولا بد ان يكون الأميركيون الذين يكرسون الكثير من طاقتهم لاختيار الرئيس المناسب اول من لاحظ ذلك.

صحيح ان صانعي السياسة الأميركية، وكذلك حسني مبارك، يجدفون الآن على كامب ديفيد، لكن هذا لا يعني انهم يقصدون ذلك فعلا. ففسحة الخيار لديهم صغيرة، خصوصا بعد ان اصبحت مصر والولايات المتحدة سجينتي اسرائيل التي تعرف كيف تستغل قوة الابتزاز لديها؛ وهذا ما لا يستطيع الأميركيون تجاهله. فقد تتراجع اسرائيل عن الانسحاب النهائي من سيناء بما يؤدي الى تدمير كامب ديفيد نفسها او، وهذا هو الأخطر في المدى البعيد، قد تستخدم جنوب لبنان في مغامرة عسكرية يكون من شأنها ان تهدد المصالح الأميركية في الشرق الأوسط. وهو السادات، مع مواقف بيغن التي لا تنم عن ضمير، من اوصل الأميركيين الى هذا السجن. لكن الصحيح ايضا ان غباءهم وضعفهم وحماقاتهم، فضلا عن ظروف الرئيس كارتر الانتخابية ورغبته في تحقيق نصر سهل في السياسة الخارجية، هي التي دفعت بهم الى هذا المصير.

ولعله يفيد التذكير هنا، انه يوم قرر السادات ان يزور القدس وسط دهشة العالم، كانت الولايات المتحدة تنشط في جهودها من اجل المجيء بكل الأطراف المعنية بنزاع الشرق الأوسط الى مؤتمر جنيف. وهي فعلت ذلك من موقع الاعتراف بأن الحل الحقيقي الوحيد يجب ان يكون «شاملا» فعلا، حتى ولو ان مفهومها لـ «الحل الشامل» كان يختلف